قصص إسلامية للأطفال

السباح المجاهد

تأليف
محمد منير الجنباز

مكتبة
التوبة

ح مكتبة التوبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجنباز، محمد منير

السباح المجاهد.- الرياض

٤٤ص، ١٧×٢٤سم.- (سلسلة قصص إسلامية للأطفال)

ردمك: × - ٥٣ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

١ - القصص الإسلامية ٢ - قصص الأطفال أ - العنوان

ب - السلسلة

ديوي ٨١٣،٠٨٨ ٢٠/٣٨٢٤

رقم الإيداع: ٢٠/٣٨٢٤

ردمك: × - ٥٣ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

طبعة جديدة منقحة

الرياض- المملكة العربية السعودية - شارع جرير

هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

طفولة سالم:

سَالِمٌ وَلَدٌ صَغِيرٌ محبوبٌ مِنْ وَالِدَيْهِ، رَغْمَ كَثْرَةِ حَرَكَتِهِ وَلَعِبِهِ، لِأَنَّهُ مُطِيعٌ لَهُمَا يُلَبِّي طَلَبَهُمَا بِسُرْعَةٍ وَإِتْقَانٍ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ في بَعْضِ الأَحْيَانِ أَعْمَالٌ مُزْعِجَةٌ حِيْنَما يَتَراشَقُ بِالْكُرَةِ مَعَ زُمَلائِهِ، فَيُصِيبُ بَعْضَ المَارَّةِ في الطَّرِيْقِ، فَبَعْضُهُمْ يُسَامِحُهُ لِأَنَّهُ صَغِيْرٌ، وَبَعْضُهُم يَشْتَكي سَالِماً

لِوَالِدِهِ الَّذي يَزجُرُهُ، ويُؤَدِّبُهُ بالضَّرْبِ أَوِ الحِرْمَانِ

مِنْ مَصْرُوفِهِ اليَوْمِيِّ حَتّى يَكُفَّ عَنِ اللَّعِب،

وَتَارَةً يَأْخُذُهُ مَعَهُ لِلْمَتْجَرِ الّذِي يَعْمَلُ فيهِ، فَيُسْنِدُ

إليهِ بَعْضَ الأَعْمَالِ التي تُناسِبُ سِنَّهُ، لَكِنَّ سَالِماً

لا يُطِيْقُ المُدَاوَمَةَ على العَمَلِ، فَسُرْعَانَ مَا يَأْتِيْهِ

أَحَدُ زُمَلائِهِ فَيَقِفُ على بَابِ المَتْجَرِ وَيُنَادِيْهِ

بِصَوْتٍ يَفْهَمُهُ سَالِمٌ، وَعِنْدَمَا يَسْمَعُ سَالِمٌ

الصَّوْتَ، يَعْرِفُ أَنَّهُ مِنْ أَحَدِ زُمَلائِهِ الّذِيْنَ يَلْعَبُ

مَعَهُمْ، فَيَتْرُكُ العَمَلَ وَيَنْطَلِقُ إلى زَمِيْلِهِ، ثُمَّ

يَنْطَلِقَانِ إلى بَقِيَّةِ الزُّمَلاءِ فَيَجْتَمِعُوْنَ في الطُّرُقَاتِ

وَالْحَارَاتِ، وَلاَ يَفْتَقِدُ وَالِدُ سَالِمٍ ابْنَهُ إلاّ بَعْدَ

فَوَاتِ الأَوَانِ، عِنْدَ ذَلِكَ يَقُوْلُ فِي نَفْسِهِ:

سَأُحَاسِبُهُ فِي البَيْتِ، وفي البَيْتِ يَجِدُ وَالِدُ سالِمٍ

قَائِمَةً طَوِيْلَةً مِنَ الشَّكَاوَى ضِدَّ سَالِمٍ، فَهَذِهِ

وَالِدَتُهُ تَقُولُ لَهُ: لَقَدْ كَسَرَ اليَوْمَ إبْرِيْقَ الفَخَّارِ،

فَقَدْ تَعَثَّرَ بِهِ وَهُوَ يَجْرِي، وَتَقُوْلُ أُخْتُهُ الكُبْرى:

لَقَدْ قَطَعَ لِي خُيُوْطَ الغَزْلِ عِدَّةَ مَرّاتٍ وَأَنَا أَغْزِلُ

الصُّوْفَ، بِسَبَبِ لَعِبِهِ وَعَدَمِ انْتِبَاهِهِ، كَمَا تَقُوْلُ

أُخْتُهُ الصُّغْرَى: إِنَّهُ أَخَذَ لُعْبَتِي الصَّغِيرةَ وَقَصَّ

شَعْرَهَا، وَرَسَمَ عَلَى وَجْهِهَا لِحْيَةً وَشَارِباً،

فَيَضْحَكُ الوَالِدُ مِنْ حَرَكَاتِ سَالِمٍ وَأَفْكَارِهِ، ثُمَّ يَنْهَضُ لِمُعَاقَبَتِهِ وَاسْتِتَابَتِهِ، وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ العَهْدَ أَلاَّ يَعُوْدَ لِلشَّغْبِ ثَانِيَةً، فَيَعِدُهُ سَالِمٌ، ثُمَّ تَمْضِي فَتْرَةُ هُدُوْءٍ لا تُجَاوِزُ بِضْعَ دَقَائِقَ، فَإِذَا بِسَالِمٍ يَنْسَى وَعْدَهُ، وَيَعُوْدُ لِلَّعِبِ وَالحرَكَةِ، وَتَعُوْدُ الشَّكَاوَى ضِدَّهُ مِنْ جَدِيْدٍ.

وَحَارَ وَالِدُهُ مَاذَا يَفْعَلُ بِهِ؟ إِنَّ سَالماً يَمْلِكُ طَاقَةً مَنَ الحَرَكَةِ والنَّشَاطِ، وَعَلَيَّ أَنْ أُوَجِّهَهَا إِلى عَمَلٍ مُفِيدٍ، فَعُمْرُهُ الَّذِي لَمْ يُجَاوِزِ الثَّامِنَةَ لا يُمَكِّنُهُ مَنْ إِنْجَازِ أَعمالٍ مُهِمَّةٍ في المَتْجَرِ، ثُمَّ

فَكَّرَ وَالِدُهُ مَلِيّاً حَتَّى قَرَّرَ أَخِيْراً أَنْ يُسَجِّلَهُ في المَدْرَسَةِ العَادِلِيَّةِ.

والعَادليّةُ، مَدْرَسَةٌ مِنْ عِدَّةِ فُصُولٍ تَضُمُّ خِيْرَةَ العُلَمَاءِ في المَدينةِ، وَمَنْ يَتَخَرَّجُ مِنْها يُعَدُّ مُتَفَوِّقاً وَيُصْبِحُ لَهُ مُسْتَقْبَلٌ عِلْمِيٌّ مُمْتَازٌ.

وَالْتَقَى والِدُ سَالِمٍ بِالشَّيخِ سَعِيْدِ المُشْرِفِ عَلى المَدْرَسَةِ العَادِلِيَّةِ، وَكَلَّمَهُ بِشَأْنِ قَبُولِ سَالِمٍ فيها، وَأَعْطَاهُ فِكْرةً وَاْضِحَةً عَنْ سَالِمٍ، فَقَبِلَهُ الشَّيْخُ سَعِيْدٌ، وَطَلَبَ مِنْ وَالِدِهِ إِحْضَارَهُ إلى المَدْرَسَةِ صَبَاحَاً.

سالم في المدرسة:

دَخَلَ سَالِمٌ المَدْرَسَةَ، فَوَجَدَهَا عَالَماً جَدِيْداً، فَمَشَى فِيْهَا وَهُو يَتَلَفَّتُ يَمِيْناً وشِمَالاً، وَبَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ وَالاسْتِغْرَابُ، لَقَدْ شَهِدَ الأَسْوَاقَ وَالطُّرُقَاتِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْهَدِ المَدْرَسَةَ إلاَّ فِي هَذِهِ المَرَّةِ فَقَطْ، لَقَدْ لَفَتَ نَظَرَهُ مَنْظَرُ الطُّلاَّبِ وَهُمْ يَتَجَوَّلُوْنَ فِي سَاحَتِهَا بِأَدَبٍ وَهُدُوْءٍ، بَعْضُهُمْ صَغِيرٌ فِي مِثْلِ سِنِّهِ، وَآخَرُوْنَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنّاً، يَضَعُوْنَ عَلَى رُؤُوسِهِمُ العَمَائِمَ وَيَحْمِلُوْنَ كُتُباً كَبِيْرَةً يَقْرَؤُوْنَ فِيْهَا، وبَعْضُهُمْ مُنْهَمِكٌ فِي نِقَاشٍ وَجِدَالٍ، وَانْتَحَى سَالِمٌ جَانِباً،

وهُوَ يَنظُرُ وَيَتَأَمَّلُ الجَمِيْعَ، عَلَّهُ يَجِدُ أَحداً يَعْرِفُهُ

فَلَمْ يَجِدْ أَحداً، ثُمَّ شَدَّت انْتِبَاهَهُ عِدَّةُ أَشْجَارٍ

مِنَ الجَوْزِ وَالتِّيْنِ، كَانَتْ مُتَنَاثِرةً في سَاحَةِ

المَدْرَسَةِ، تَحْمِلُ ثِمَاراً يَانِعَةً، فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى

إحْدَى هَذِهِ الأَشْجَارِ وَوَقَفَ يَتَأَمَّلُ الطُلاَّبَ، إنَّهُمْ

في مُنْتَهى الهُدُوْءِ والنِّظَامِ، هَكَذَا قَالَ سَالِمٌ،

عَجِيْبٌ أَمْرُ هذِهِ المَدْرَسَةِ، لَيْسَ فِيهَا مَنْ يُحِبُّ

اللَّعِبَ وَالْجَرْيَ، وَتَمَنَّى مِنْ قَرَارَةِ نَفْسِهِ لو

يَرْكُضُ أَحَدُهُمْ أَوْ يَلْعَبُ لَفَعَلَ هُوَ مِثْلَهُ، لَكِنْ

لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا، وَكَانَ بَيْنَ حِيْنٍ وآخر

يَنْظُرُ إلى ثِمَارِ التِّينِ الشَّهِيَّةِ فَوْقَ أَشْجَارِهَا، وَيَتَمَنَّى لَوْ يَصْعَدُ إِلَيْهَا فَيَقْطِفُ مِنْهَا بِضْعَ حَبَّاتٍ، لَكِنَّهُ يَعُوْدُ فَيَكْبَحُ شَهْوَتَهُ وَيَقُوْلُ في نَفْسِهِ: لِمَاذَا لا يَصْعَدُ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلاءِ لِيَقْطِفَ التِّينَ؟ أَهُوَ مَمْنُوعٌ يا تُرَى؟ أم إنَّ هَؤُلاءِ الطُلاَّبَ عاجِزُونَ عَنْ صُعُوْدِهَا؟

لَمْ يَدُمْ تَسَاؤُلُهُ طَوِيْلاً، فَسُرْعَانَ مَا رَبَطَ ثَوْبَهُ عَلَى خَصْرِهِ، ثُمَّ قَفَزَ فَوْقَ إِحْدَى أَشْجَارِ التِّينِ، فَرَقَاهَا وَقَطَفَ مِنْ ثِمَارِهَا، وَبَدَأَ يَأْكُلُ مِنْهَا وَيَرْمِي عَدَداً مِنْهَا إلى الطُّلاَّبِ، فَحَصَلَ في

المَدْرَسَةِ هَرْجٌ وَمَرْجٌ وَصُرَاخٌ، فَبَعْضُ الطُلاَّبِ الّذِينَ يَعْرِفُوْنَ نِظَامَ المَدْرَسَةِ خَافُوا على سَالِمٍ مِنْ عُقوبَةِ نَاظِرِ المَدْرَسَةِ، فَقَالوا لهُ: انْزِلْ يا هَذَا قَبْلَ أَنْ يَرَاكَ النَّاظِرُ، فَإنَّ عِقَابَهُ شَدِيْدٌ، وَبَعْضُهُمْ ظَنَّ لِسَالِمٍ حُظْوَةً لَدَى النَّاظِرِ، فَأَقْبَلُوا عَلَى سَالِمٍ وقالواَ لَهُ: أرمِ لَنَا مِنَ التِّيْنِ، وَبَدَؤُوا يُشِيْرُونَ إلى النَّاضِجِ مِنْهَا فَيَقُوْلُونْ: اِرْمِ لَنَا هَذه، واقْطِفْ لنا تِلْك، وسَمِعَ النَّاظِرُ وَهُوَ في غُرْفَتِهِ ضَجِيْجَ الطُّلاَّبِ وَصُراخَهُمْ، فَخَرَجَ يَسْتَطْلِعُ الخَبَرَ، فَإذَا المَدْرَسَةُ عَلَى غَيْرِ عَادَتِها مِنَ

الفَوْضَى وَالصَّخَبِ، فَصَاحَ فِيْهِمْ بِصَوْتِهِ الجَهْوَرِيِّ، وَدَعَاهُمْ إلى التِزامِ الهُدُوْءِ، فَهَدَأَ الجَمِيعُ خَوْفاً مِنْهُ وَرَهْبَةً، وَظَلَّ سَالِمٌ عَلَى الشَّجَرَةِ يَرْقُبُ النَّاظِرَ الوَقُوْرَ، وَعُيُوْنُ الطُّلاّبِ مَشْدُوْدَةٌ نَحْوَهُ، فَالتَفَتَ إلى سَالِمٍ وَهُوَ على الشَّجَرَةِ فَنَادَاهُ، وَقَالَ: انْزِلْ أَيُّها الشَّقِيُّ، وَأَقْبِلْ إلى هُنَا، فَنَزَلَ سَالِمٌ وَمَثُلَ بَيْنَ يَدَيِ النَّاظِرِ، فَأَمْسَكَ بِهِ وَدَعَا الطُّلاَّبَ إلى الانْتِظَامِ في صُفُوْفٍ، ثُمَّ نَادَى عَرِيْفَ المَدْرَسَة وَطَلَبَ مِنْهُ إحْضَارَ الفَلَقِ، فَأَحْضَرَهُ على عَجَلٍ وَشَدَّ رِجْلَي

سَالِمٍ فِيْهِ، ثُمَّ انْهَالَ عَلَيهِ ضَرْباً حَتّى عَلاَ صُرَاخُ سَالِمٍ وَبُكَاؤُهُ، فَتَرَكَهُ، ثُمَّ قَالَ: هذا جَزَاءُ مَنْ يَصْعَدُ الأشجَارَ ويُخالِفُ نِظَامَ المَدْرَسَةِ، وَهَدَأَتِ المَدْرَسَةُ، ثُمَّ أَمَرَ الجَمِيْعَ بِالدُّخُوْلِ إلى فُصُوْلِهِمْ، وَبَقِيَ سَالِمٌ في سَاحَةِ المَدْرَسَةِ يَتَأَوَّهُ مِنَ الأَلَمِ، فَتَقَدَّمَ إلَيْهِ شَيْخُ الفَصْلِ، وَكَانَ رَجُلاً طَيِّباً فِيْهِ لِيْنٌ، فَلاَطَفَ سَالِماً بَطَيِّبِ الكَلاَمِ، وَقَالَ لهُ: لَوْ قُلْتَ لي يَا بُنَيَّ إنَّكَ تُحِبُّ التِّينَ لاشْتَرَيْتُهُ لَكَ مِنَ السُّوْقِ، ألاَ تَعْلَمُ أَنَّ النَّاظِرَ يُعَاقِبُ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ العِقَابِ؟!

رَدَّ سَالِمٌ: لَقَدْ أَفْطَرْتُ تِيْناً هَذَا الصَّبَاحِ في البَيْتِ، وَلَكِنَّنِي أَحْبَبْتُ أَنْ أَقْطِفَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ.

قَالَ الشَّيخُ: لاَ بَأْسَ لِنَبْدَأ الدرسَ فَفِي العِلْمِ فَوَائِدُ كَثِيْرَةٌ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَحرِصَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ بَدَأَ الشَّيْخُ في تَعْلِيْمِ الطُلاَّبِ، وَاعتَنَى بِشَكْلٍ خَاصٍّ بِسَالِمٍ، فَأَحَبَّهُ سَالِمٌ وَمَالَ قَلْبُهُ إِلَيْهِ، وَبَدَأَ يَفْهَمُ عَنْهُ الدُّرُوسَ. وَمَرَّتِ الأَيَّامُ وَسَالِمٌ يَتَقَدَّمُ في مَدْرَسَتِهِ، لَقَدْ هَدَأَتْ حَرَكَتُهُ قَلِيْلاً وَاتَّزَنَتْ أَفْعَالُهُ، وَلَمْ يَعُدْ ذَلِكَ الوَلَدَ المُشَاكِسَ الخَطِرَ.

وفي أَحَدِ الأَيَّامِ، طَلَبَ الشَّيخُ مِنَ التَّلاَمِيْذِ

أَنْ يَكْتُبُوا بِخَطِّ الرُّقْعَةِ قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ: «عَلِّمُوا أَوْلاَدَكُمُ السِّبَاحَةَ والرِّمَايَةَ وَرُكُوْبَ الخَيْلِ» فَقَامَ سَالِمٌ، وَقَالَ: مَا أَحْلَى قَوْلَ عُمَرَ! لِمَ لا نُطَبِّقُهُ يَا شَيْخَنَا الفَاضِلَ؟ فَنَحْنُ أَبْنَاءُ مَدِيْنَةِ حَمَاةَ الّتي يَجْرِي فِيْهَا نَهْرُ العَاصِي، وَأَغْلَبُنَا لا يُجِيْدُ السِّبَاحَةَ، فَلِمَ لاَ نَتَعَلَّمُ السِّبَاحَةَ؟

قَالَ الشَّيخُ: كَلاَمُكَ حَقٌّ، وَلَكِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأُمُوْرِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ مُوَافَقَةِ أَوْلِيَائِكُمْ، فَنَهْرُ العَاصِي خَطِرٌ في بَعْضِ الأَحْيَانِ، أَلاَ تَسْمَعُوْنَ بَيْنَ حِيْنٍ وَآخَرَ عن غَرَقِ أَحَدِ الأَوْلاَدِ فِيْهِ؟ وَهَذَا يُسَبِّبُ

خَوْفاً لأَوْلِيَائِكُمْ، فَرَدَّ أَحمدُ قَائِلاً: نَعَمْ يَا شَيْخَنَا إِنَّ وَالِدَتي تَنْصَحُنِي دَائِماً بِأَلاَّ أَقْتَرِبَ مِنَ النَّهْرِ حَتَّى لاَ أَغْرَقَ مِثْلَ جَارِنَا حَاتِم، فَرَدَّ الشَّيْخُ: عَلَيْكُم أَلاَّ تَقْتَرِبُوا مِنَ النَّهْرِ، خُصُوْصاً إِذا كُنْتُمْ لا تُجِيْدُوْنَ السِّبَاحَةَ، أَمَّا السَّبَّاحُ المَاهِرُ فَلا يُخِيْفُهُ النَّهْرُ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَأَنَا أُجِيْدُ السِّبَاحَةَ، وَمَنْ يَأْذَنْ لَهُ وَلِيُّهُ بِتَعَلُّمِ السِّبَاحَةِ، فَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لِتَعْلِيْمِهِ.

فَرِحَ التَّلاَمِيْذُ مِنْ قَوْلِ الشَّيْخِ، وسَعوا لِلْحُصُوْلِ عَلَى إِذْنٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ بِذَلِكَ.

دروس في السباحة:

وَفي اليَوْمِ التَّالِي أَحْضَرَ عَدَدٌ مِنَ الطُّلاَّبِ خِطَابَاتٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ أُمُوْرِهِمْ، تَأْذَنُ لَهُمْ بِتَعَلُّمِ السِّبَاحَةِ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ في نَهْرِ العَاصِي، وَسَلَّمُوْهَا إلى نَاظِرِ المَدْرَسَةِ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ يَزِيْدُ عَنِ العِشْرِيْنَ تِلْمِيذاً، فَاسْتَدْعَى نَاظِرُ المَدْرَسَةِ الشَّيْخَ «زَاكي» وَأَبْلَغَهُ مُوَافَقَةَ أَوْلِيَاءِ التَّلاَمِيْذِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَهْتَمَّ بِالتَّلاَمِيذِ، وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ سَبَّاحِيْنَ مَاهِرِيْنَ.

سُرَّ الشَّيْخُ زَاكي مِنْ هَذِهِ المهمَّةِ الّتي

أُوْكِلَتْ إِلَيْهِ، كَمَا سُرَّ مِنْ ثِقَةِ أَوْلِيَاءِ التَّلاَمِيْذِ بِهِ، وَوَعَدَ النَّاظِرَ بِأَنْ يَهْتَمَّ بِالطُّلاَبِ، وَأَنْ يُعَلِّمَهُم السِّبَاحَةَ، ثُمَّ حَدَّدَ لِلتَّلاَمِيْذِ مَوْعِداً في الأُسْبُوعِ وَطَلَبَ مِنْهُمْ إِحْضَارَ سَرَاوِيْلاَتٍ طَوِيلةٍ لِلسِّبَاحَةِ.

وفي المَوْعِدِ الْمُحَدَّد اِنْطَلَقَ الجَمِيْعُ بِمَوْكِبٍ يُثِيْرُ الانْتِبَاهَ إلى نَهْرِ العَاصِي، وَاخْتَارَ الشَّيْخُ لَهُمْ بَابَ النَّهْرِ، لأَنَّهُ يَصْلُحُ لِتَعْلِيْمِ المُبْتَدِئِيْنَ، فَفِيْهِ مَسَاحَاتٌ شَاسِعَةٌ لا يَزِيْدُ عُمْقُها عَنِ المِتْرِ تَقْرِيباً، وَأُخْرَى عَمِيْقَةٌ تَصْلُحُ لِلسَّبَّاحِيْنَ المَاهِرِيْنَ.

صَفَّ الشَّيْخُ التَّلاَمِيْذَ في مَكَانٍ مُشْرِفٍ عَلَى

النَّهرِ، وَبَدَأَ بِإعْطَاءِ الوَصَايَا المُهِمَّةِ، فَحَدَّدَ لَهُمُ الأَمَاكِنَ الآمِنَةَ، وَالأَمَاكِنَ الخَطِرَةَ العَمِيْقَةَ، الّتي فِيْهَا دَوَّامَاتٌ قَوِيَّةٌ تَلُفُّ الإِنْسَانَ وَتَهْوِي بِهِ نَحْوَ القَاعِ، وَأَوْصَاهُمْ أَيْضِاً بِالابْتِعَادِ عَنِ النَّاعُوْرَةِ وَمَدَاخِلِ الطَّوَاحِيْنِ، لأَنَّها تُشَكِّلُ شَلاّلاَتٍ قَوِيَّةً لا يُمْكِنُ مُقَاوَمَتُهَا، وَبَعْدَ شَرْحٍ مُسْتَفِيضٍ مِنَ التَّعْلِيْمَاتِ في الحَظْرِ والإِبَاحَةِ، بَدَأَ بِتَعْلِيْمِهِمُ السِّبَاحَةَ، وَتَدْرِيْبِهِمْ عَلَيْهَا الوَاحِدَ تِلْوَ الآخَرِ، وَأَمْضَى مَعَهُمْ عِدَّةَ سَاعَاتٍ ثُمَّ عَادُوا إلى المَدْرَسَةِ فَرِحِيْنَ مَسْرورِيْنَ.

وَتَوَالَتِ الأَيَّامُ، والسَّبَّاحُوْنَ الصِّغَارُ يَتَعَلَّمُوْنَ وَيَتَقَدَّمُوْنَ في إتْقَانِ هَذَا الفَنِّ حَتَّى بَرَعُوا فِيْهِ، وَأَصْبَحُوا يُقَلِّدُوْنَ السَّمَكَةَ وَيُحَاكُوْنَهَا سِبَاحَةً وَغَوْصاً، وَأَصْبَحُوا يَسْبَحُونَ في الأَمَاكِنِ العَمِيْقَةِ وَلا يَخْشَونَ غَرَقاً وَلاَ يَخَافُوْنَ مِنَ الشَّلاَّلاَتِ وَلاَ الدَّوَّامَاتِ، فَرِحَ الشَّيْخُ زَاكِي لِهَذِهِ النَّتِيْجَةِ المُمْتَازَةِ، وَفَرِحَ أَكْثَرَ بِسَالِمِ الَّذِي بَرَعَ بِشَكْلٍ مُنْقَطِعِ النَّظِيْرِ، فَقَدْ كَانَ يُرَاقِبُهُ وَهُوَ يَسْبَحُ فَيَجِدُهُ يَقُوْمُ بِحَرَكَاتٍ سَرِيْعَةٍ، وَعِنْدَمَا يَتْبَعُهُ أَحَدُ زُمَلاَئِهِ فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيْعُ الإِمْسَاكَ بِهِ، فَقَدْ كَانَ سَرِيْعاً

بَارِعاً لاَ يُجَارَى فِي السِّبَاحَةِ. وخَطَرَتْ لِلشَّيْخِ لِذَلِكَ خَاطِرةٌ: لِمَاذا لاَ يُقِيْمُ لِطُلاَّبِهِ سِبَاقاً في يَوْمٍ مَشْهُوْدٍ؟ لِذَلِكَ تَدَاوَلَ هَذَا الأَمْرَ مَعَ الطُّلاَّبِ، وَلَمَّا وَجَدَ عِنْدَهُمُ الحَمَاسَ أَعْلَنَ عَنْ يَومٍ لِلسِّبَاقِ، وَدَعَى لَهُ المُدِيْرَ وَأَوْلِيَاءَ الطُّلاَّبِ لِيَشْهَدُوا هَذَا الحَدَثَ الفَرِيْدَ، وَكَانَ السِّبَاقُ مَعَ اتِّجَاهِ مِيَاهِ النَّهْرِ مِنَ «البِشْرِيَّاتِ» إلى سَاحَةِ الجَامِعِ النُّورِيِّ، وَتَبْلُغُ عِدَّةَ أَمْيَالٍ.

انْطَلَقَ المُتَسَابِقُوْنَ بَعْدَ إعْطَاءِ إشَارَةِ الانْطِلاَقِ والشَّيْخُ بِجِوَارِهِمْ يُجَدِّفُ في قَارِبٍ

صَغِيْرٍ وَهُوَ يُتَابِعُهُمْ وَيُشَجِّعُهُمْ على مُتَابَعَةِ المَسِيْرِ، وَاجْتَهَدَ سَالِمٌ في السِّبَاقِ، وَبَدَأَ يَنْسَابُ في المَاءِ كَالحُوْتِ، فَتَارَةً يَغُطُسُ تَحْتَ المَاءِ وَتَارَةً يَسْبَحُ فَوْقَ سَطْحِ المَاءِ، وَهُوَ في المُقَدِّمَةِ دُوْنَ مُنَافِسٍ حَتَّى وَصَلَ إلى سَاحَةِ المَسْجِدِ النُّورِي، فَصَفَّقَ لَهُ الحَاضِرُونَ وَأَثْنَوا عَلَيْهِ خَيْراً، وَفَرِحَ وَالِدُهُ كَثِيْراً، وَرَأَى بِمَا لاَ يَدَعُ مَجَالاً لِلشَّكِّ أَنَّ ابْنَهُ سَالِماً أَصْبَحَ سَبَّاحاً مَاهِراً.

سالم يعمل مع أبيه:

وَاظَبَ سَالِمٌ على المَدْرَسَةِ حَتّى تَعَلَّمَ اللُّغَةَ

العَرَبِيَّةَ وَعُلُومَ الدِّينِ، مِنْ فِقْهٍ وَتَفْسِيرٍ، وَأَصْبَحَ يَكْتُبُ بِخَطٍّ جَيِّدٍ، لِذَلِكَ دَعَاهُ والِدُهُ لِلْعَمَلِ مَعَهُ في المتْجَرِ، وأَسْنَدَ إليْهِ أَعْمَالاً مُهِمَّةً فِيْهِ، وَاشْتُهِرَ مَتْجَرُ وَالِدِ سَالم بِالصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ والبَيْعِ بِأَسْعَارٍ مُعْتَدِلَةٍ، كَمَا كَانَ يُنْظِرُ المُعْسِرَ إِذَا تَأَخَّرَ في سَدَادِ الدَّيْنِ، وَتَحَوَّلَ مَتْجَرُهُ سَرِيعاً إلى مَتْجَرٍ يَبِيعُ بِالجُمْلَةِ، وَيُتَاجِرُ مَعَ مُخْتَلَفِ البُلْدَانِ البَعِيْدَةِ، كَالشَّامِ وَمِصْرَ والعِرَاقِ وَالْهِنْدِ.

وَكَثُرَتِ الأَمْوَالُ عِنْدَ سَالِمٍ وَأَبِيْهِ، فَكَانَ يُعْطِي مِنْهَا الفُقَرَاءَ، وَيَتَصَدَّقُ عَلَى المُحْتَاجِيْنَ،

كَمَا كَانَ لاَ يَنْسَى أَنْ يَزُورَ مَدْرَسَتَهُ التي عَلَّمَتْهُ وَيُقَدِّمَ لها الهِبَاتِ وَالهَدَايَا لِتُوَزِّعَ عَلَى طُلاَّبِ العِلْمِ، وَكَانَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ حِيْنٍ وآخَرَ إلى نَهْرِ العَاصِي في عُطْلَة الجُمُعَةِ، فَيَسْبَحُ وَيَغُوصُ ثُمَّ يَعُوْدُ إلى البَيْتِ.

السفر والجهاد:

قَرَّرَ وَالِدُ سَالِمٍ أَنْ يُرسِلَ سَالِماً إلى مِصْرَ لِيَتَّصِل مَعَ عَدَدٍ مِنْ تُجَّارِهَا المَشْهُورِيْنَ، وَيُقِيمَ مَعَهُم عَلاَقَاتٍ تِجَارِيَّةً وَثِيقَةً، وَانْطَلَقَ إلى مِصْرَ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، فَزَارَ القَاهِرَةَ وَالإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَحَمَلَ

مِنْهَا بَضَائِعَ كَثِيْرةً، وانْطَلَقَتِ السَّفِيْنَةُ الكَبِيْرَةُ عَائِدَةً إلى بِلاَدِ الشَّامِ، وَذَلِكَ في سَنَةِ ٦١٤هـ، وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَتِ السَّفِيْنَةُ مِنْ مِيْنَاءِ دِمياطَ المصْرِيِّ، شاهَدَ رُبَّانُ السَّفينةِ الإفْرَنْجَ تُحاصِرُ المِيْنَاءَ، فَوَقَفَ حَائِراً لا يَدْرِي مَا يَفْعَلُ، فَالطَّرِيْقُ أَمامَهُ خَطِرَةٌ، وَقَدْ تُحِيْطُ بِهِ سُفُنُ الأعْدَاءِ وَتَسْتَوْلي عَلَى سَفِيْنَتِهِ، لَذَلِكَ تَوَقَّفَ وَأَنْزَلَ الأَشْرِعَةَ وَجَمَعَ المُسافِرِينَ وَشَرَحَ لَهُمُ الحَالَةَ الرَّاهِنَةَ، فَأَشَارُوا عليه بِآرَاءَ عَدِيدَةٍ، بَعْضُهُمْ طَلَبَ مِنه العَوْدَةَ إلى الإِسْكَنْدَرِيّةِ، وآخرونَ طَلَبُوا مِنْهُ المُضِيَّ في

الطَّرِيْقِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ، وَالتَّوَغُّلَ في عُرْضِ البَحْرِ، لَكِنَّ سَالِماً أَتَى بِرَأْيٍ آخرَ فَقَالَ: علينا أَنْ نُقَدِّمَ المُسَاعَدَةَ لإِخْوَانِنَا في دُمْيَاطَ فَلَعَلَّهُمْ بِحَاجَةٍ إلى مَا مَعَنَا مِنْ طَعَامٍ، فَقَالَ الحَاضِرُوْنَ: وَكَيْفَ لَنَا أَنْ نَصِلَ إليْهِمْ؟ قَالَ سَالِمٌ: اتْرُكُوا الأَمْرَ لي.

صراع مع الأمواج:

وفي المَسَاءِ خَلَعَ سَالِمٌ مَلابِسَهُ وَلَبِسَ قَمِيْصاً وَسِروالاً طويلاً وَشَدَّ حَوْلَ خَصْرِهِ خِنْجَراً حَادّاً، وودَّعَ رُبَّانَ السفينةِ، ثم قَذَفَ بنفسِهِ إلى

المَاءِ وَغَاصَ في الأَعْمَاقِ، وسَبَحَ باتّجاهِ الشّاطِىءِ، وكانَ البَحْرُ هائِجاً فَلَمْ يَأْبَهْ لِلأَمْوَاجِ، وَمَعَ هِيَاجَ البَحْرِ هَاجَتْ حِيتَانُهُ الشَّرِسَةُ، فَتَعَرَّضَ لِسَالِمٍ أَجَدُ حِيتانِ القِرشِ المُتَوَحِّشَةِ، فَصَارَعَهُ سالمٌ وَقَضَى عَليه، فَقَد اسْتَطَاعَ أنْ يُسَدِّدَ إليه عِدَّةَ طَعَنَاتٍ مِنْ خِنْجَرِهِ الْحَادِّ فَهَوىٰ إلى الأَعْمَاقِ وَهُوَ يَتَلَوَّى مِنَ الأَلَمِ، تَارِكاً وَرَاءَهُ خَطّاً مِنَ الدّمَاءِ.

تَابَعَ سَالمٌ طَرِيقَهُ حَتَّى وَصَلَ إلى مَصَبِّ نَهْرِ النِّيلِ فِي الْبَحْرِ، حَيْثُ تُرَابِطُ بالْقُرْبِ مِنْهُ

سُفُنُ الأَعْدَاءِ، فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا غَوْصاً حَتَّى دَخَلَ فِي النَّهرِ، وَوصَلَ إلى بَابِ السَّلاسِلِ، فَغَاصَ مِنْ تَحْتِهَا أيْضاً ثُمَّ صَعِدَ إلى الأَعْلَىٰ فَإذَا بِأَسْوَارِ دُمْيَاطَ تَبْدُو لَهُ فَقَصَدَها واقْتَرَبَ مِنْ بَابِ السُّور، ونَادَى حَرَسَ الأَبْوَابِ فَفَتَحُوا لَهُ الْبَابَ وَقَبَضُوا عَلَيْهِ، وَقَادُوهُ إلى والي الْمَدِيْنَةِ، فَعَرَّفَهُ سَالِمٌ بِنَفْسِهِ وبالمُؤَنِ التي مَعَهُ، فَفَرِحَ والي دُمْيَاطَ بِها، وكانَتِ المَدينَةُ بِأَشَدِّ الحاجَةِ لَها، فاتَّفقَ سَالِمٌ مَعَ الْوَالِي عَلَى خُطَّةٍ لإِيصَالِ السَّفِينَةِ دُونَ رَقَابَةِ الأَعْدَاءِ، وهَكَذَا أَمْضى عِنْدَهُمْ لَيْلَةً لِلرَّاحَةِ، وفي

بِدَايَةِ اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ، تَوَجَّهَ سَالِمٌ إلى السَّفِينَةِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ فَوَصَلَهَا قَبْلَ بُزُوغِ الْفَجْرِ، فَوَجَدَ أَصْحَابَهُ في قَلَقٍ عَلَيْهِ، وَهُمْ يُصَلُّونَ وَيَدْعُوْنَ رَبَّهم أنْ يَصِلَ إلَيْهِمْ سَالِمٌ مُعَافى، فَشَكَرَهُمْ سَالِمٌ على مَحَبَّتِهم لَهُ، وَأَخْبَرَهم بِلِقَائِهِ مَعَ والي دُمْياطَ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ، وَشَرَعُوا في التَّخْطِيْطِ لِإيْصَالِ السَّفِينَةِ إلى المُسْلِمينَ المحَاصَرِينَ في دُمْيَاطَ، وانْطَلَقَتِ السَّفِينَةُ في اللَّيْلِ تَتَهَادَى بِبُطْءٍ، وَقَدْ أَنْزَلَتْ أشْرِعَتَها، وَسَارَتْ بِمَجَادِفِ المُجَدِّفِيْنَ لِكَيْ لا يَرَاها الأَعْدَاءُ، وَظَلَّتِ السَّفِينَةُ تَتَقَدَّمُ

بِبطءٍ حَتَّى دَخَلتْ مَصَبَّ النِّيْلِ، وَتَقَدَّمَتْ نَحْوَ بَابِ السَّلاسِلِ وَأَعْطَتِ الإِشَارَةَ المُتَّفَقَ عَلَيْها فَفَتحَ الحُرَّاسُ لَهَا البَابَ، وَدَخَلَتْ في المَضِيْقِ المُوْصِلِ إلى دِمْيَاطَ، وَلَمّا رَآهَا المُسْلِمونَ مِنْ أعْلَى الأبْرَاجِ كَبَّرُوا فَرَحاً بِوُصُولِهَا، وَارْتَفَعَتْ مَعْنَوِيَّاتُهُمْ بالْمؤَنِ التي فِيهَا، فَقَاوَمُوا الحِصَارَ عِدَّةَ أشْهُرٍ أُخرى.

بداية الهجوم على سفن الأعداء:

عَلِمَ السُّلطَانُ بِجُرْأَةِ سَالِمٍ وَبُطُوْلَتِهِ، فَطَلَبَهُ لِيُكَافِئَهُ على مَا قَدَّمَ لِلْمُسْلِمِينَ، وكانَ السُّلْطَانُ

يُرَابِطُ بِجَيْشِهِ بَعِيْداً عَنْ دُمْيَاطَ، على شَوَاطِىءِ النِّيْلِ العُلْيَا، فَذَهَبَ سَالِمٌ إِلَيْهِ وَمَثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَرَحَّبَ به السُّلطَانُ وشَكَرَهُ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْعَمَلَ مَعَ سُفُنِ الْمُسْلِمِيْنَ الحَرْبِيَّةِ، فَوَافَقَ سَالِمٌ عَلَى ذَلِكَ، لأَنَّهُ سَيُؤدِّي لِلْمُسْلِمِيْنَ خِدْمَةً ضِد أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَلأَنَّ الجِهَادَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

والْتَقَى سَالِمٌ بِقَائِدِ أُسْطُولِ الْمُسْلِمِيْنَ، وأَطْلَعَهُ عَلَى خُطَّةٍ يُرْعِبُ بِهَا الأَعْدَاءَ، وَيُدَمِّرُ لَهُمْ جُزْءاً من أُسْطُولِهِمْ، وَكَانَت الْخُطَّةُ تَهْدِفُ إلى اقْتِنَاصِ سُفُنِ الأَعْدَاءِ، لَقَدْ كَانَ الأَعْدَاءُ

يَرْبِطُوْنَ سُفُنَهُمْ في اللّيْلِ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، لِكَيْ لا تَتَقَاذَفَهَا الأَمْوَاجُ وَتَتَفَرَّقَ عَنْ بَعْضِها، لِذَلِكَ اتَّفَقَ مَعَ الْقَائِدِ للاسْتِيْلاَءِ عَلَيْها، سَفِينَةً إثْرَ أُخْرَىٰ، وَغَاصَ سَالِمٌ تَحْتَ الماءِ، حَتّى وَصَلَ إلى سُفُنِ الأَعْدَاءِ، فَغَاصَ تَحْتَ إحْدَاهَا، وَصَعِدَ عَلَيْهَا وَقَتَلَ حَارِسَهَا، ثُمَّ قَطَعَ الحِبَالَ الَّتي تَرْبِطُها مَعَ السُّفُنِ الأُخْرَى، وَرَبَطَهَا بِحَبْلٍ طَوِيلٍ، ثُمَّ نَزَلَ إلى المَاءِ. وَسَحَبَ الحَبْلَ إلى قَارَبٍ كَبِيرٍ كَانَ يَنْتَظِرُه مَعَ عَدَدٍ مِنَ الْجُنُودِ السَّبَاحِينَ، وَبَدَأَ سَحْبَ السَّفِينَةِ بَعِيْداً عَنْ سُفنِ الأَعْدَاءِ، حَتَّى

أوْصَلُوْها إلى سَفِينَةٍ لِلْمُسْلِمِيْنَ كَانَتْ بانْتِظَارِهَا.

وَلَمَّا تَقَارَبَتِ السَّفِينَتَانِ وَثَبَ جُنُودُ المُسْلِمِيْنَ عَلَيْهَا، وَقَتَلُوا مَنْ فِيْهَا مِنَ الأَعْدَاءِ، واسْتَوْلَوا عَلَيْهَا، وَجَازُوها إلَيْهِمْ.

وهَكَذَا اسْتَطَاعَ سَالِمٌ، أنْ يَسْحَبَ في لَيْلَتِهِ هَذِهِ ثَلاثَ سُفُنٍ لِلأَعْدَاءِ قَبْلَ أنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ، ثُمَّ عَادَ إلى الشَّاطِىءِ لِيَسْتَرِيحَ، وَلِيُعِدَّ خُطَّةً جَرِيئَةً لِلَّيْلَةِ الْقَادِمَةِ، وَمَعَ بُزُوغِ الْفَجْرِ انْتَبَهَ الأَعْدَاءُ إلى نَقْصِ سُفُنِهِمْ، ولكِنْ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوانِ، فَشَدَّدُوا الحِرَاسَةَ في اللَّيْلَةِ التَّالِيةِ، وَهُمْ في حَالَةِ خَوْفٍ وَتَرَقُّبٍ،

واقْتَرَبَ سَالِمٌ هَذِهِ المرَّة لِيُنَفِّذَ عَمَلِيَّتَهُ الجَدِيْدَةَ بِخُطَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، ولمَّا اقْتَرَبَ مِنَ السُّفُنِ غَاصَ تَحْتَ إِحْدَاهَا، ثُمَّ ظَهَرَ لِيَأْخُذَ أَنْفَاسَهُ، فَرَآهُ الأَعْدَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْكَبُونَ قَارِباً وَيَقُومُونَ بِالْحِرَاسَةِ حَوْلَ السُّفُنِ، فَصَاحُوا بِهِ، وَصَوَّبُوا إليهِ السِّهَامَ، لَكِنَّهُ غَاصَ بِسُرْعَةٍ تَحْتَ المَاءِ، فَأَشْعَلُوا النَّارَ وَبَدَؤُوا في البَحْثِ عنه، فكانَ كُلَّما ظَهَرَ لَهُمْ خَيَالُهُ أَطْلَقُوا عليه السِّهَامَ، فَيَغُوْصُ بَسرْعةٍ نَحْوَ الأَعْمَاقِ فَلا تُدْرِكُهُ السِّهَامُ، وَهَكَذَا حَتَّى أَتْعَبَهُم وابْتَعَد بهم عَنِ السُّفُنِ، ثم غَاصَ تحتَ قَارِبِهم وَأَمْسَكَ بِمُؤخِّرَتِهِ

وَهُمْ لا يَرَوْنَهُ، وَأَمْضَى فَتْرَةً لِلرَّاحَةِ والأَعْدَاءُ حَائِرُونَ، لا يَدْرُونَ أَيْنَ ذَهَبَ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَصَابُوهُ بِسَهمٍ فَقَتَلُوْهُ، وبَعْدَ فَتْرةِ هُدُوْءٍ، جَمَعَ سَالمٌ قُوَّتَهُ وقَلَبَ القَارِبَ، فَخَافُوا مِنَ المُفَاجَأةِ وارْتَاعُوا، وَسَقَطُوا في الماءِ خَائِفِيْنَ، فَتَلَقَّاهُم سَالمٌ بِخِنْجَرِهِ الحادِ، وَبَقَر بُطُوْنَهم أجْمَعِينَ، ثُمَّ سَبَحَ باتِّجاهِ دُمْيَاطَ، وكانَ صَيْدُهُ في هذه اللَّيْلَةِ خُمْسَةَ جُنُودٍ فَقَط، لَكِنَّها كَانَتْ مُغَامَرَةً نَاجِحَةً اسْتَفَادَ سَالِمٌ مِنْهَا.

وفي الصَّبَاحِ، كَانَ سَالمٌ يَرْقُبُ البَحْرَ مَعَ ثُلَّةٍ مِنْ زُمَلائِهِ السَّبَّاحِيْنَ، فَرَأوا سَفِينَةً كَبِيْرةٍ

لِلأَعْدَاء قَادِمَةً مِنْ بَعِيْدٍ، وَكَانَتْ ضَخْمَةً لم يَشْهَدُوا مِثْلَهَا مِنْ قَبْلُ، تَحمِل لِلأَعْدَاءِ المُؤَنَ والسِّلاَحَ والجُنُودَ، وَقَدْ سَمَّاهَا الأَعْدَاءُ «مَارْمَا».

تَبَسَّمَ سَالمٌ لما رَآهَا وَقَالَ: يا لَهاَ مِنْ صَيْدٍ ثَمِينٍ، سَأُبَاغِتُهَا في المَسَاءِ قَبْلَ أنْ يُفَرِّغُوا مِنْهَا شَيْئاً، وفي المَسَاءِ، كَانَت الظُّلْمَةُ في هَذِهِ اللَّيْلةِ حَالِكَةً لأَنَّ الشَّهْرَ في آخِرِهِ، فلا قَمَرٌ في السَّمَاءِ يبددها، والغُيُومُ تَحْجُبُ النُّجُومَ، فَتُضْفي عَلَى الأَرْضِ ظَلاَماً دَامِساً، وانْطَلَقَ سَالمٌ في عُرْضِ البَحْرِ قَاصِداً السَّفِينَةَ «مَارْمَا»، وفي جُعْبَتِهِ مِثْقَابٌ

وَأَدَواتٌ أُخْرى لِنَقْبِ السَّفِينَةِ وَإِغْرَاقِهَا، فَوَصَلَها قَبْلَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بِقَلِيلٍ، فَأَمْسَكَ بِمِرْسَاتِهَا وَاسْتَرَاحَ قَلِيلاً، وَتَنَصَّتَ عَلَى القَوْمِ فَلَمْ يَسْمَعْ مِنهم حِسّاً ولا حَرَكَةً، فَعَلِمَ أَنَّهُمْ نِيَامٌ مِنْ مَشَقَّةِ السَّفَرِ، فَنَزَلَ إلى قَاعِ السَّفِينَةِ وَكَانَ عَمِيقاً، وَبَدَأَ فِي نَقْبِهَا، وَمَا هِيَ إلاّ سَاعَاتٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى أَحْدَثَ فِيهَا عَدَداً مِنْ الثُّقُوب الْكَبِيرَةِ فَبَدَأَتِ السَّفِينَةُ تَهْوي إلى الْقَاعِ، وَلَمْ يَشْعُرِ الأَعْدَاءُ بِأَمْرِهَا إلاّ بَعْد أَنْ غَطَسَ مُعْظَمُهَا في الماءِ، فَهَبُّوا خَائِفِينَ مَذْعُورِيْنَ، واضْطَرَبَ أَمْرُهُمْ، وَعَلاَ

صِيَاحُهُمْ، فاتَّجهُوا نَحْوَ البَحْرِ، وَبَدَؤوا يَقْذِفُون أَنْفُسَهُمْ في الماءِ، وكَانَ سَالمٌ بانْتِظَارِهِمْ، فَكَانَ يَطْعَنُ كُلَّ مَنْ يُلْقِي بِنَفْسِهِ في الماءِ حَتّى قَتَلَ عَدَداً كَبِيراً مِنْهُمْ، ثُمَّ ابْتَعَدَ عَنِ السَّفِيْنَةِ وَوَقَفَ قَلِيلاً يُمَتِّعُ نَظَرَهُ بِهَا، وَيَشْهدُ ابْتِلاعَ الماءِ لأَكْبَرِ سَفِينَةٍ لِلْعَدُوّ، بِمَا فيهَا مِنْ مُؤَنٍ ورجالٍ، وَأَحْدَثَ غَرَقُهَا صَدْمَةً كَبِيْرةً لِلأَعْدَاء، أمَّا المُسلِمُونَ فَقَد فَرِحُوا بِهَذَا النّصْر في الْبَحْرِ.

انسحاب الأعداء:

خافَ الصَّلِيبِيُّون مِنْ كَثْرَةِ الخَسَائِرِ المُتَلاحِقَةِ

الَّتي أُصِيْبُوا بِهَا، وَحَسِبُوا أنَّ هُنَاكَ قُوىً خَارِقَةً تَقِفُ إلى جانِبَ المُسلِمِيْنَ، فَتُحْدِثُ الأذَى في صُفُوْفِهِمْ، لِذَلِكَ قَالُوا: لَوْ بَقِيْنا عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ فَسَوْفَ نَفْقِدُ كُلَّ سُفُنِنَا، فَلاَ خَيْرَ في هَذَا الحِصَارِ الّذِي لَمْ نُحَقِّقْ مِنْهُ مَغْنَماً أوْ فَتْحاً، كَمَا أنَّ قُوَّاتِهِمْ الَّتي تَقَدَّمَتْ وَحَاصَرَتْ دُمْيَاطَ بَرّاً، مُنِيَتْ بِهَزِيْمَةٍ مُنْكَرَةٍ، فاجْتَمَعَتْ لَهُمْ هَزِيْمَتَانِ، لِذَلِكَ قَرَّرُوا فَكَّ الحِصَارِ وَالانْسِحَابَ لَيْلاً، وَمَاإنْ بَزَغَتْ شَمْسُ الْيَوْمِ التَّالي، حَتّى كَانَتْ سُفُنُهُمْ تَنْشُرُ أَشْرِعَتَها، وَتُغَادِرُ سَوَاحِلَ مِصْرَ بِلاَ رَجْعَةٍ.

فَرِحَ المُسْلِمُوْنَ بِهَذَا النَّصْرِ، فَحَمِدُوا اللهَ على انْكِشَافِ الغُمَّةِ، وَعَادُوا لِمُزَاوَلَةِ أَعْمَالِهِمْ، واسْتَدْعى السُّلطَانُ سَالِماً، وَشَكَرَهُ على بِطُوْلاَتِهِ وَمَنَحَهُ الأَوْسِمَةَ والهَدَايَا والمالَ، تَعْوِيْضاً لَهُ عَنْ بَضَائِعِهِ التي قَدَّمهَا لِلْمَدِينةِ المُحَاصَرَةِ، وَلَقَّبَهُ «السَّبَّاحُ المُجَاهِدُ» فَكَانَ لَقَباً فيهِ عِزٌّ وَفَخْرٌ لِسَالم.

عَادَ سَالِمٌ إلى أَهْلِهِ مُحَمَّلاً بِالبَضَائِعِ، مُتَابِعاً طَرِيْقَهُ في بَحْرٍ آمِنٍ، فَوَصَل إلى سَوَاحِلِ الشَّامِ، ثُمَّ انْتَقَل إلى مَدِينَةِ حَمَاةَ، فَنَزَلَ فِيهَا

وَمَشَى عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ العَاصِي، فَأَعَادَ لِذَاكِرَتِه أَيَّامَ الطُفُوْلَةِ التي تَعَلَّمَ فِيهَا السِّبَاحَةَ وَأَتْقَنَهَا، لَقَدْ أَفَادَتْهُ، وَأَفَادَتْ أُمَّتَهُ، وَجَعَلَتْهُ يَحُوْزُ عَلَى لَقَبِ «السَّبَّاحِ المُجَاهِدِ».